العصر العباسي الثاني

عصر النفوذ التركي والدول المستقلة فيه

(٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ = ٨٤٧ ـ ٩٤٥ م)

١ ـ سيطرة الاتراك على الخلافة العباسية والدول المستقلة

سيطر الأتراك على الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم ، ولم يقتصر نفوذهم على العاصمة فحسب ، بل شمل الولايات الاسلامية الأخرى ، إذ أخذ الخلفاء يقطعونهم تلك الولايات مقابل جزية معينة يؤدونها لبيت المال . وقد جرت العادة أن يبقى هؤلاء الولاة الأتراك إلى جوار الخليفة في العاصمة بغداد أو سامرا ، ويرسلون من ينوب عنهم في حكم تلك البلاد .

ومن ثم أخذ خطر هؤلاء الأتراك يستفحل حتى قيل إن الخليفة المعتصم ندم في أواخر حياته على اصطناعه الأتراك . ففي حديث له مع أحد رجال أخيه المأمون ، نراه يظهر اعجابه بالرجال الذين اصطنعهم المأمون أمثال طاهر بن الحسين ، وعبد الله بن طاهر ، ويبدي أسفه على قواده الأتراك بقوله : « وانا اصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وأشناس ففشل رأيه ، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه » [١] .

غير أن أسف المعتصم جاء بعد فوات الأوان ، إذ لما ولي من بعده ابنه

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣١٧ .

الواثق ، أمسك الأتراك بناصية الخلافة حتى أصبح الخليفة مكتوف الأيدي مسلوب السلطان . ولما حاول أخوه المتوكل الذي ولي بعده سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) أن يقف في وجههم ويحد من نفوذهم ، فتكوا به ليلا قبل أن يتمكن منهم سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) (١) . ومنذ ذلك الوقت سيطر الاتراك على الدولة تماما حتى صارت في أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون . ولابن طباطبا في كتاب الفخري في الآداب السلطانية ، عبارة تصف تلك الحال في الدولة العباسية يقول فيها « واستولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على الخلافة ، فكان الخليفة في أيديهم كالأسير إن شاءوا ابقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه » . (٢)

وخلف المتوكل ابنه المنتصر بالله الذي خضع لسياسة الأتراك في بداية الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ثار عليهم وصار يسبهم بقوله : « هؤلاء قتلة الخلفاء » . فأغروا به طبيبه ابن طيفور ، ودفعوا له مبلغا كبيرا من المال ، ففصده بريشة مسمومة ، فمات بعد ستة أشهر من خلافته . وأقام الأتراك بعده المستعين بن محمد بن المعتصم (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) الذي لم يلبث هو الآخر أن تنكر لهم وفر محتجا من سامرا إلى بغداد ، فما كان من قادة الترك أمثال وصيف وبغا ، إلا أن أقاموا ابن عمه المعتز بن المتوكل في الخلافة ، ومن ثم قامت حرب أهلية بين المستعين والمعتز عدة أشهر ، اختلت فيها أحوال البلاد الاقتصادية وارتفعت الأسعار ، وانتهى الأمر بانتصار المعتز ومقتل المستعين (٣) .

ولم ينعم المعتز بالحكم طويلا (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) رغم أنه كان مستضعفا مع الأتراك ، ويخشاهم كثيرا ، ويعمل على مداراتهم ودفع خطرهم حتى صار موضع تهكم معاصريه . يروي صاحب الفخري « أنه لما جلس المعتز على سرير الخلافة ، قعد خواصه وأحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : أنظروا كم يعيش وكم

(١) اتهم المنتصر بالمشاركة في قتل والده ، وقد نفى عن نفسه هذه التهمة مدعيا أن الوزير ابن خاقان هو الذي قتله أخذا بثأر أبيه .

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٢٠ .

(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ٤٩ — ٥٠ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي جـ ٣ ص ٨ .

يبقى في الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك ! ! فلم يبق في المجلس إلا من ضحك » [1] .

ولقد صدق قول هذا المتهكم الظريف ، إذ أن نهاية المعتز كانت على يد الأتراك عندما خلعوه وعذبوه وقتلوه سنة ٢٥٥ هـ .

وأقام الأتراك من بعده المهتدي بن الواثق الذي بدأت في عهده ثورة الزنج الخطيرة في جنوب العراق بقيادة علي بن محمد واستمرت بعد ذلك أربع عشرة سنة هددت خلالها كيان الدولة العباسية [2] .

وحاول المهتدي أن يوقع بين قادة الترك كوسيلة للتخلص من نفوذهم؛ ولكنهم فطنوا لمحاولته وقتلوه قبل أن يمر عام على توليته سنة ٢٥٦ هـ .

واستمر الخلفاء العباسيون العوبة في يد القواد الترك لا حول لهم ولا قوة حتى إنه يروى أن الخليفة المتقي (٣٢٩ – ٣٣٣ هـ) فكر في الهروب إلى مصر ، واتصل فعلا بواليها الأمير محمد الأخشيد في مدينة الرقه سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) ، غير أن أمير الأمراء التركي توزون علم بأنباء هذه المفاوضات واعتقل الخليفة المتقي وخلعه من الخلافة ثم كحّله (أي سمل عينيه) جزاء له على هذا العمل . وفي بداية عهد الخليفة المستكفي حل النفوذ البويهي الفارسي محل النفوذ التركي سنة ٣٣٤ هـ .

ولعل أصدق وصف لتلك الحالة التعسة التي مر بها الخلفاء العباسيون في تلك المرحلة السالفة ، هو قول الشاعر العلوي دعبل (المتوفي سنة ٢٤٦ هـ) :

خليفة مات ، لم يحزن له أحـــد … وآخر قام ، لم يفرح به أحـــد
فمرّ ذاك ومـــرّ الشؤم يتبعُـــه … وقام ذا فقام النحس والنكد [3] .

---

(١) ابن طباطبا : نفس المصدر ص ٢٢١ .

(٢) ، (٣) احمد علبي : ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ص ٦٠ .

على أن موضع الأهمية هنا ، هو أن ضعف الخلافة والحكومة المركزية في بغداد قد شجع على قيام حركات انفصالية ونزعات استقلالية في أطراف الدولة .

ويلاحظ في هذا الصدد أن الفتوحات الاسلامية شملت عالما واسعا من الأقاليم والأجناس والشعوب واللغات المتباينة من أواسط آسيا شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا . وعلى الرغم من أن هذه الاقطار الواسعة قد اتحدت برباط ديني واحد وهو الإسلام . إلا أنها لم تتحد في قومياتها أو بيئاتها أو لغتها ، فقد ظل كل اقليم له شعبه وقوميته وبيئته ومصالحه الخاصة به . ثم جاءت الدولة العباسية ومعها فكرة المساواة بين العرب وبين الشعوب المختلفة فأيقظت الروح القومية بين تلك الشعوب .

ولهذا كان من الطبيعي أن ينزع كل اقليم إلى الاستقلال بشئونه عن السلطة المركزية في بغداد كلما سنحت له الفرصة بذلك .

ولقد انتشرت هذه الحركات الاستقلالية في المشرق الإسلامي بشكل واضح في القرن الثالث الهجري أي في العصر العباسي الثاني . فقامت دويلات مستقلة تركية وفارسية ، ولكن العنصر التركي هو الذي كان سائدا فيها جميعا ، ومثال ذلك الدول الصفارية والسامانية والغزنوية في المشرق ، ومثل دولتي الطولونيين والاخشيديين في مصر والشام .

وتجدر الملاحظة في هذا الصدد أن المشرق الاسلامي كان بالنسبة للخلافة العباسية هو المعين الخصيب الذي تستمد منه قوتها وأنظمتها منذ بداية نشر دعوتها . لهذا حدث نوع من الارتباط بين الشرق والخلافة يقوم على الولاء للخلافة حتى في أشد فترات ضعفها . ونلمس ذلك بوضوح في حرص الدول التي استقلت في المشرق – بما في ذلك مصر والشام – على إعلان تبعيتها وولائها عن طريق الدعاء للخليفة العباسي ونقش اسمه على السكة وارسال الجزية إلى بغداد في كل عام . فهو استقلال ذاتي أو داخلي فقط . وهذه الظاهرة لا نجدها

في دول المغرب الاسلامي التي استقلت استقلالا تاما سياسيا وروحيا عن الخلافة العباسية منذ العصر العباسي الأول مثل الدولة الاموية السنية في الأندلس ، ودولة الأدارسة العلويين في فاس بالمغرب الأقصى ، ودولة بني رستم الإباضية في تاهرت بالمغرب الأوسط ، ودولة بني مدرار الصفرية في سجلماسة (تافيلالت حاليا) جنوبي المغرب الأقصى .

ولا شك أن هذه النزعات الاستقلالية شرقا وغربا ، قد أضرت بوحدة الدولة الإسلامية ، إلا أنها في الوقت نفسه قامت بدور ايجابي في نشر الإسلام فيما وراء الحدود الإسلامية في آسيا وافريقيا واوربا ، فضلا عن أن تنافسها فيما بينها قد ساعد على ازدهار الحضارة الاسلامية في تلك الجهات ، وظهور مراكز حضارية فيها كانت قبلة أنظار العلماء والتجار والشعراء مثل بخاري وسمرقند والفسطاط وقرطبه وفاس وغيرها .